تَثْبِيتُ الجَنَان

لمنْ مَاتَ لهُ أحَدُ الوِلْدَان

جابر القصاص

تَثْبِيتُ الجَنَان

لمنْ مَاتَ لهُ أحَدُ الوِلْدَان

جابر القصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله باسط الأرض ورافع السماء، هو القاهر فوق عباده، والمتفرد بالعزة والجبروت والبقاء، خلق الخلائق بقدرته، وكتبه عليهم الزوال والفناء، فكان الموت راحة وخلاصًا للمتقين الأنقياء، وعذابًا وسوء منقلب للطاغين الأشقياء، ويبعثهم جميعًا بقدرته يوم العرض والجزاء.

نحمده سبحانه وتعالى ملء الأرض والسماء، ونثني عليه أحسن الثناء، ونستعينه في البأساء والضراء، ونتوكل عليه مخلصين له الخشية والرجاء، ونعوذ بنور وجهه من جهد البلاء، ودرك الشقاء وشماتة الأعداء، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، المنزه ع الأنداد والأشباه والشركاء، أجرى الأمور بحكمته، وقسّم الأرزاق وفق ما يشاء، ونشهد أن سيدنا محمدًا خاتم الرسل والأنبياء، وإمام المجاهدين والعابدين والأتقياء، بعثه الله رحمة للعالمين ونورًا وضياء، وتركنا على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا كتبت عليهم الشقاوة واتبعوا الأهواء.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله، وصحابته الأجلاء، وعلى السائرين على دربه والداعين بدعوته إلى يوم اللقاء، صلاة وسلامًا دائمين متلازمين، م تعاقب صبح ومساء، وما دام في الكون ظلمة وضياء.

أما بعد.. أحبتي في الله.. إن الله تعالى كتب الموت على كل نفس، فلم يستثن من ذلك أحدًا، لا مؤمنًا ولا كافرًا، ولا طائعًا ولا عاصيًا، ولا صبيًا ولا شابًا ولا شيخًا، فقال في محكم التنزيل وهو أصدق القائلين: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: ٥٧]، وقال جل شأنه: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

ومصيبة الموت من أعظم المصائب التي تصيب الناس في الدنيا، لا سيما عند من استغرقتهم الدنيا وزهرتها، وألهاهم الأمل، واستبعدوا حدوث الموت لهم أو لذويهم، حتى يأتيهم بغتة فيدمغهم، كما أنه بوابة الآخرة، وموطن اليقين، وأول طريق العرض والحساب والجزاء على ما قدموا في دنياهم.

والله تعالى سمى الموت مصيبة في كتابه، حيث قال: {فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْت} [المائدة: ١٠٦]، لأنه يصيب الإنسان على غير انتظار، فلا تدري نفسي متى يحين أجلها، وكذلك لأنه يشق على النفوس ذكره ووقوعه، ولفظة (المصيبة) تقال فيما تكره النفوس وقوعه، ويشق عليها، كما في قوله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا} [آل عمران: ١٦٥]، وقوله: {إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} [التوبة: ٥٠]، وكذا قوله جل شأنه: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠]، قال القرطبي رحمه الله: "وسمى الله تعالى الموت في هذه الآية مصيبة، قال علماؤنا: والموت وإن كان مصيبة عظمى، ورزية كبرى، فأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وترك التفكر فيه، وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر"[(١)].

وقد جاء في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» فقلت: يا نبي الله أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت، فقال: «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته، أحب لقاء الله، فأحب الله

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٦ / ٣٥٢).

لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه، كره لقاء الله، وكره الله لقاءه»[1].

قال بعض أهل العلم: إن لقاء الله لا يراد به الموت بذاته، فإن كراهية الموت لا تخلو منها نفس إنسان كما هو مصرح به في الحديث، وإنما يراد به مفارقة الدنيا والمصير إلى الدار الآخرة، فإن المؤمن لا يصبو إلى الدنيا، بل يرجو ما عند الله من الرضوان والثواب والنعيم المقيم، بينما الكافر أو المنافق يركن إلى الدنيا ونعيمها الزائل ولا يريد فراقها، وذلك كما قال الله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: ١٨، ١٩].

وإن موت الولدان هو أعظم مصائب الدنيا على الإطلاق، فإن البنين هم زينة الدنيا الغالية، وفلذات الأكباد، ورياحين الأفئدة، والنفوس مجبولة على حبهم والرحمة بهم، كما أن ضعف أبدانهم وقواهم في صغرهم من أقوى أسباب الفجع في موتهم، كما قال بعضهم لما سئل عن أحب أولاده إليه: صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ.. فما أعظم مصاب أب أو أم في ابن صغير لهم مات أمام أنظارهم، وتظل صورة ذلك الصبي وقد توقّفت أنفاسه، وشخص بصره، وبرد جسمه، وانسلّت روحه صاعدةً إلى باريها، وقد تحلّق من حوله أهله وذووه يبكونه ويذرفون الدموع عليه، وكذل صورته والماء ينسكب على جسده الطاهر ليزيده نقاءً فوق نقاء، وصورته وهو ملفوف في كفنه الأبيض، أو محمولًا في النعش إلى قبره، ثم وهو يودع في اللحد أمام أعينهم!

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٤)، والنسائي (١٨٣٨)، والترمذي (١٠٦٧)، وابن ماجة (٤٢٦٤)، وأحمد (٢٥٨٣١).

وما أقسى ذاك الشعور وهم مضطرون لمغادرته وحده في ظلمة القبر، ومفارقته لأول مرة منذ مولده ما تبقى لهما من العمر، منقلبين إلى ديارهم بدونه، وما يصاحب ذلك من هواجس وتساؤلات: عن حاله في القبر، وهل يشعر بوحشة واشتياق إليهم أم لا؟ وهل يبكي أو يتأذى لمفارقتهم؟ وكل ذلك وهم عاجزون عن الوصول إليه، فقد أمسى في عالم آخر غير عالمهم، وفقدوا كل وسائل الاتصال به، وانقطعت بهم أسباب تفقده وتعهده.

ولكن ينبغي لكل أب وكل أم: أن الأجر على قدر المشقة والصبر، وإن خير ما يتجاوزون به هذه المحنة: الرضا والتسليم بأمر الله، وهذا هو معنى قولنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال جل شأنه: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]، فمعنى قولنا: (إنا لله) أي: ملكًا وخلقًا وتدبيرًا، يفعل بنا ما يشاء، ويحكم فينا ما يريد، لا اعتراض لنا على ما قدره الله علينا وقضاه، بل نرضى ونسلم، ولا نتسخط، وقولنا: (وإنا إليه راجعون): فيه تقديم المتعلق "إليه" لإفادة الحصر، مع مراعاة رؤوس الآي، أي: وإنا إليه وحده صائرون في جميع أمورنا، في ديننا ودنيانا، ومردنا إليه في أُخرانا، فنحتسب أجر ما أصابنا عنده سبحانه، ففي هذه الكلمة: جمع بين الإقرار بتوحيد الربوبية في قولنا: (إنا لله)، وبين الإيمان برجوعنا ومصيرنا إلى الله عز وجل ومجازاته لنا، فنحتسب ذلك عنده، ونتسلى به عما يصيبنا.

قال القرطبي رحمه الله: "جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب، وعصمة للممتحنين: لما جمعت من المعاني المباركة، فإن قوله: (إنا لله) توحيد وإقرار

بالعبودية والملك، وقوله: (وإنا إليه راجعون) إقرار بالهلك، على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له"[1].

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن سعيد بن جبير رحمه الله قال: "لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم تعط الأنبياء قبلها: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، ولو أعطيته الأنبياء لأعطيها يعقوب إذ قال: (يا أسفى على يوسف)"[2].

وروي عن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه قال لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك توشك أن تبلغ، فقال الرجل: يا أبا علي إنا لله وإنا إليه راجعون[3].

إن ديننا هو الإسلام، والإسلام يعني التسليم لله والانقياد له، والتسليم لله يعني: إذعان القلب وانقياده بالاعتقاد والقصد، وإذعان اللسان وانقياده بالإقرار، وإذعان الجوارح وانقيادها بالعمل، والله تعالى أثنى على خليله إبراهيم عليه السلام بقوله: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: ١٣١].

والتسليم لله تعالى يكون بالاستسلام له جل شأنه في أمره ونهيه، وقضائه وقدره، فالكون كونه، والخلق خلقه، وهو المالك على الحقيقة، وغيره مملوك، وهو الرب المتصرف بالتدبير والتقدير، وغيره مربوب، ومن غابت عنه هذه الحقيقة لم يصمد قلبه أمام أي فتنة أو ابتلاء، ومن سلم لله في كل أمره فقد حصل عز الدنيا وجنة الآخرة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٢ / ١٧٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (١ / ٢٦٥).

(٣) حلية الأولياء: (٨ / ١١٣).

والناس عند وقوع المصيبة على فئتين: فمنهم من يجزع ويقنط ويتسخط، ومنهم يسلم بقضاء الله وأمره، ويصبر أو يتصبر، وقد يرتقي فوق الصبر إلى مقام الرضا وهو من أعلى مقامات الإيمان، فأما الفئة الأولى فهم الذين قال الله تعالى فيهم: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} [الروم: ٣٦]، وكذا قال فيهم: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} [الشورى: ٤٨].

وأما الفئة الأخرى – وهم الأكمل والأمثل – فهم الذين قال الله تعالى فيهم: {إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]، فهؤلاء سلموا أمرهم لله، وأعلنوا رضاهم وتقبلهم المصير إليه، دون تسخط أو تفجع، فكان هذا أكمل الخير لهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له»[(١)]، جمع الحديث بين منزلتين من أعلى منازل العبودية: الشكر والصبر، وقد قيل: "الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر"، وذلك أن أمر الإنسان دائر بين نعمة تستوجب الشكر، وبلية تستوجب الصبر، فمن جمع بينهما فقد حاز الإيمان كله، وإيمان العبد متوقف على كليهما، والله المستعان.

وهذا التسليم يصعب على بعض الناس في الفواجع، ولا سيما لو كانت الفاجعة موت أحد الأبناء أو أكثر، وربما انتهز الشيطان الفرصة فيدب إلى الأب والأم فيلقي بوساوسه في صدريهما، بما قد يصل إلى التشكيك في رحمة الله وفضله

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (١٨٩٣٤).

وعدله، أو التكذيب باليوم الآخر والمعاد والجزاء، أعاذنا الله من ذلك، أو في أدنى الأحوال يدفعهم إلى التسخط والاعتراض على أمر الله تعالى، بإظهار الجزع والتفجع وشنيع النوح والندب، وقد ثبت في الصحيح من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري» قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[1].

فهذه امرأة فقدت وليدها، وحال بينها وبينه الموت، فأخذ منها الأسى كل مأخذ، ولم تقدر على إخفاء جزعها وحسرتها على فقد ابنها الذي طواه الموت، ويبدو أنه عليه الصلاة والسلام رأى أو سمع منها ما يشبه الاعتراض والتسخط، كما قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: "هذا البكاء كان معه ما يُنكر، من رفع صوت أو غيره، كالجزع"[2]، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "يؤيده: أن في مرسل يحيى بن أبي كثير المذكور: فسمع منها ما يكره"[3].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى": إنما يشير إلى مرتبة الكمال في الصبر، فإن المصيبة بطبعها لها أثرٌ مروّع تزلزل النفس وتزعج القلب، فإذا ثبت المبتلى في لحظاته الأولى سَهُلَ عليه الأمر بعد ذلك، وهان عليه الخطب، فتراه مع الأيام يسلو ويتلهى بالمعاش وتعاقب الأيام، ويعتاد الواقع الجديد،

---

(١) رواه البخاري: (١٢٨٣) ومواضع، ومسلم (٩٢٦).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: (٢/ ٥٧٩).

(٣) فتح الباري: (٣ / ١٤٩).

ومن هنا جاء التفاوت في الأجر واستحقاق المدح بين الصابرين عند الصدمة الأولى والصابرين بعدها، فأهل التوفيق يقابلون الفواجع بالتسليم من أول وهلة، ولا يحتاجون إلى الوقت والتلهي والاعتياد مع تعاقب الأيام، وهو أمر يسير لمن يسّره له، أما سواهم فإنهم بحاجة إلى ما يعنيهم ويسليهم ويثبتهم، ويحضهم على الصبر، مثلما حدث مع تلك المرأة، والله الموفق والمستعان.

***

ومما يعين على الصبر، ويسلي تلك الأفئدة المكلومة، ويطيّب القلوب التي نهشها الحزن والفجع، ويفضي إلى التسليم عند وقوع تلك الفاجعة:-

١- اليقين برحمة الله جل وعلا: فإن الإيمان بالله جل وعلا يستلزم الإيمان بصفاته، ومن أجلّ صفاته عز وجل صفة الرحمة، قال تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم} [الزمر: ٥٣]، وقال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيم} [الأنعام: ٥٤]، قال البغوي رحمه الله: "هذا استعطاف منه تعالى للمؤمنين (المعرضين) عنه إلى الإقبال عليه، وإخبارهم بأنه رحيم بالعباد لا يعجل بالعقوبة، ويقبل الإنابة والتوبة"(١).

وأما الكافرون فقال في شأنهم: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} [الأنعام: ١٢]، قال ابن

(١) تفسير البغوي: (٣ / ١٣٠)، والكلمة بين القوسين ليست من النسخة المطبوعة، وإنما أضفتها من عندي ليستقيم المعنى.

عطية: "ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالى بأنه كتب الرحمة: تأنيس الكفار، ونفي يأسهم من رحمة الله إذا تابوا، وأن باب توبتهم مفتوح"[1].

قلت: وقرأ بعض الصالحين قول الله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: ٣٨]، فقال: سبحانك ربي! ما أكرمك، وما أحلمك! إن كانت هذه رحمتك بالكافرين، فما الظن بالمؤمنين؟

قلت: وقال الله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٥٦]، وجاء على لسان الملائكة: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً} [غافر: ٧]، وهذا يشمل العالمين جميعًا، وإن كان لا ينتفع بها إلا المؤمن، وذلك كما قال بعض أهل العلم: "فهي عامة من جهة الصلاحية، وخاصة بمن كتبت له"[2].

وعلى المقابل من ذلك ورد التحذير من القنوط من رحمة الله جل وعلا: {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: ٥٦].

ومن السنة النبوية: عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: «أترون هذه طارحة ولدها في النار»، قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[3].

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (٢ / ٢٧٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٠ / ٤٣١).

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

وفي الصحيحين: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي»، وفي رواية: "سبقت غضبي"[1]. ووجه المناسبة بين بدء الخلق وسبق الرحمة: أن الله تعالى خلق الناس جميعًا لعبادته وشكره على نعمه، ومع ذلك لا يقدر أحد على أداء حق هذا الشكر، فسبقت رحمته جل وعلا في حق الشاكر بأن يوفيه جزاءه مع تقصيره في وفاء حق الشكر والعبادة، وفي الحديث: بيان سعة رحمة الله جل وعلا، وكثرة فضله في حلمه قبل انتقامه، وعفوه قبل عقوبته.

وفي الصحيحين أيضًا: عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه»[2]، وفي بعض طرقه زيادة: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد».

ونخلص من كل ذلك إلى ثبوت صفة الرحمة لله عز وجل ثبوتًا قطعيًا، وشمول سعتها بحيث تسع الكافر إن التحق بالإيمان، والمذنب إن أقلع عن ذنبه وأعلن الخضوع والإنابة إلى ربه، وإذا كانت رحمته جل وعلا تنال الكافر إذا رجع عن كفره، وتنال المسلم العاصي إذا تاب عن معصيته، فما الظن بطفل مات قبل أن يجري عليه القلم، وصحيفته بيضاء لم يدنسها بخطيئة؟

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٤) ومواضع، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري (٦٠٠٠)- (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٢).

إن الإيمان بصفات الله عز وجل – ومنها صفة الرحمة – لهو من صميم الإيمان بالله تعالى ووجوده ووحدانيته.

فيا كل أب، ويا كل أم، اختطف الموت أحد أولادهم، إن كنتم تؤمنون بالله عز وجل ورحمته، كيف لكم أن تتصوروا – مجرد تصور – أن الله سيعذب طفلًا رضيعًا، لم يقترف خطيئة، أو صبيًا صغيرًا لم يبلغ الحلم، غير مكلف وغير مؤاخذ على عمله؟

هذا الرسول الأمين، الصادق المصدوق، يخبرنا صراحة بأن الله تعالى أرحم بعباده من تلك المرأة بولدها، فهل مثل هذا الرب الرحيم يعذب طفلًا؟ والرسول الأمين، الصادق المصدوق، يخبرنا بأن جميع تلك الرحمة التي تكون بين الخلائق، إنسهم وجنهم وبهائمهم، ما هي إلا جزء واحد من مائة جزء من الرحمة التي استأثر المولى جل وعلا بتسعة وتسعين جزءًا منها، ولك أن تتساءل أولًا: هل يمكن لإنسان رحيم عطوف القلب أن يعذب طفلًا بريئًا ضعيفًا؟

فإن كانت الإجابة: لا، فاعلم أن هذا الإنسان الرحيم عطوف القلب إنما يرحم بالجزء الواحد من الرحمة الربانية، ذلك الجزء الذي أودعه بين الخلائق جميعهم، فكيف تظن أن الله الذي استأثر بالتسعة وتسعين جزءًا قد يعذب طفلًا بريئًا ضعيفًا، لا قوة له، ولا جريرة؟

ثم ها هو الرسول الأمين، والصادق المصدوق، يحدثنا عن ربه جلا وعلا، أنه قال: "أنا عند ظن عبدي بي"[1]، فهل تظن بربك أن يعذب طفلك البريء الضعيف، ذا الصحيفة النقية، وهو الذي وصف نفسه في كتابه بأنه أرحم الراحمين

(١) رواه البخاري (٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

في أربعة مواضع من كتابه الحكيم[1]؟

فيا كل أب، وكل أم، فقدوا فلذة من فلذات أكبادهم، لا تدع الشيطان يستغل أحزانكم فيلقي في صدوركم الشكوك والظنون في رحمة الله جل وعلا، ويوحي إليكم أن ابنكم تعذب في طلوع الروح، وأنه الآن يشعر بالفزع والوحشة في ظلمة القبر، ويحتاج إليكم لإنقاذه مما هو فيه، وأنه سوف تصيبه الأهوال الجسام يوم القيامة، وتجد تلك الظنون والهواجس سبيلها إلى قلوبكم وعقولكم فيزداد فزعكم وجزعكم على أولادكم، وذلك استنادًا إلى أن هؤلاء الأولاد كانوا في حياتهم يحتاجون إليكم في توفير احتياجاتهم وكافة أحوالهم، وسوف يضيعون ويستوحشون إذا فارقوكم بالموت.

وكل هذه الوساوس والهواجس غير واردة بالمرة في حق هؤلاء الصغار، فإن الله تعالى خاطب المكلفين في كتابه العزيز فقال: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ} [النساء: ١٤٧]، قال ابن عطية: "أيْ: أيُّ منفعة له في ذلك أو حاجة؟"[2]، وقال الرازي: "أيعذبكم لأجل التشفي، أم لطلب النفع، أم لدفع الضرر، كل ذلك محال في حقه لأنه تعالى غني لذاته عن الحاجات، منزه عن جلب المنافع ودفع المضار"[3]، وقال البغوي: "وهذا استفهام بمعنى التقرير،

---

(١) هي قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأعراف: ١٥١]، {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤]، {قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٩٢]، {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: ٨٣].

(٢) المحرر الوجيز: (٢ / ١٢٨).

(٣) مفاتيح الغيب: (١١ / ٢٥٢).

معناه: إنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فإن تعذيبه عباده لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا ينقص من سلطانه"[1].

قلت: وهذا كله في حق المكلفين، فما يفعل الله جل وعلا بعذاب الأطفال الرضع، والصبية الذين لم يجر عليهم القلم؟

نعم إن للموت سكرات، وسكرات الموت وشدته لا بد منها لكل نفس، وهي شديدة جدًا على الكفار، وقد تشتد على بعض المؤمنين لرفع درجاتهم وتكفير سيئاتهم، كما قد تكون خفيفة على كثير منهم، لكن هذه السكرات هي ما يعتري الإنسان قبيل موته، أي قبيل خروج الروح منه، وهو في حال الحياة لا يزال، أما عند خروج الروح فالناس على أحوال، فالكافر والمنافق يعذبان بإزهاق الروح بالشدة للتنكيل به، ومصداق ذلك قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُون} [الأنعام: ٩٣]، قال ابن كثير رحمه الله: "{والملائكة باسطو أيديهم} أي: بالضرب كما قال: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي} [المائدة: ٢٨]"[2]، وفي آية أخرى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيق} [الأنفال: ٥٠].

هذا في حق الكفار والفجار، أما في حق المؤمن الطائع فقد قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُون} [فصلت: ٣٠]، وقال جل شأنه: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ

(١) تفسير البغوي: (٢ / ٣٠٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٣ / ٣٠٢).

الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: ٣٢].

وإذا كان هذا في حق المؤمن الذي عمل بالطاعات وقد شابها بعض المعاصي والذنوب التي يغفرها الله له، فما الظن بالرضيع أو الصبي الذي يلقى ربه بصحيفة بيضاء ناصعة، لم يجر فيها القلم بأي ذنب؟ ويكفي أن تطالع الحديث الذي رواه أحمد والحاكم عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون، يعني بها، على ملإ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين».. الحديث[1].

(١) رواه أحمد (١٨٥٣٤)، وابن أبي حاتم (٧٣٥٨)، والطيالسي (٧٨٩)، وعبد الرزاق (٦٧٣٧)، وابن أبي شيبة (١٢٠٥٩)، والآجري (٨٦٤)، والحاكم (١٠٧).

فهذا الحديث – مع ما سبقه من الآيات المباركات – يدل دلالة واضحة على أنه ليس في الموت تعذيب لهؤلاء الأطفال، فالروح تخرج بسهولة ويسر، وتتلقفها ملائكة الرحمة ثم ملائكة السموات بالحفاوة والبشارات، مما يدخل الأنس والسكينة عليهم.

وأما في القبر: فلا يعقل بعد هذه البشارات والحفاوة أن يعذب الطفل في قبره، وقد اختلف أهل العلم: هل يمتحن الأطفال في قبورهم أم لا على قولين: فذهبت طائفة منهم إلى أن الأطفال يمتحنون في القبر، والله سبحانه يكمل لهم عقولهم ليعرفوا بذلك منزلهم، ويلهمون الجواب عما يسألون عنه[1]، وهو قول بعض المالكية والحنابلة، واختاره القرطبي وابن تيمية، وحتى لو صح هذا فلن يكون امتحانهم بالأمر المرعب الذي يفزعهم، بل يكون الامتحان من أهون ما يكون، وألطفه!

والقول الثاني: أنهم لا يمتحنون ولا يسألون عن شيء، وهو قول الشافعية وبعض المالكية والحنابلة، فالسؤال والامتحان إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسِل، فيُسأل: هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ أما الطفل الذي لا تمييز له فكيف يقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ولو رُد إليه عقله في القبر، فإنه لا يسأل عما لم يتمكن من معرفته والعلم به، ولا فائدة في هذا السؤال! ثم إن العذاب في القبر يكون متعلقًا بما كان من الميت في الدنيا من ترك طاعات أو فعل خطايا، وليس للطفل شيء من هذا، وهو الذي لم يجر عليه القلم في حياته، ومنهم من مات بعد مولده بساعات أو أيام ولم يعقل شيئًا من الدنيا على الإطلاق، ففي أي شيء يمتحن؟

---

(١) انظر للأهمية: كتاب الروح لابن القيم رحمه الله: ص (٨٨).

وأما ما استدل به أصحاب القول الأول بأن هؤلاء الأطفال قد شرعت الصلاة عليهم، والدعاء لهم، ومن ذلك ما رواه الإمام مالك عن سعيد بن المسيب أنه قال: صليت وراء أبي هريرة على صبي لم يعمل خطيئة قط، فسمعته يقول: «اللهم أعذه من عذاب القبر»[1].

فقد أجاب أصحاب القول الثاني: هذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «السفر قطعة من العذاب»[2]، فالعذاب أعم من العقوبة، ولا ريب أن في القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسرى أثره إلى الطفل فيتألم به، ومن ثم فإنه يشرع للمصلى عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب، والله أعلم[3].

أي أننا بين قولين: أحدهما أنه يسأل ويُكمل له عقله، ويلهم الجواب، وبهذا يكون الامتحان من أيسر وأهون ما يكون، بل إنه لا يكون على حاله التي كان عليها في حياته من الوهن والمرض، فإنه الله تعالى يهبه القوة والعقل ليجيب عن السؤال، أو أنه لا يسأل على الإطلاق.

ثم ماذا بعد ذلك؟ بالعودة إلى حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الذي تقدم طرف منه: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى

---

(١) الموطأ ت عبد الباقي (١٨)، واللالكائي (٢١٤١).

(٢) رواه البخاري (١٨٠٤) ومواضع، ومسلم (١٩٢٧).

(٣) الروح: ص ٨٨.

الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة».

فإذا كان هذا حال المؤمن الذي غلبت طاعاته خطاياه، وسبقت له الحسنى من الله جل وعلا، فما بال الطفل الذي لقي الله وما عليه خطيئة؟

فيا أيها الآباء والأمهات، لا تدعوا الحزن والشيطان ينسجان لكم ما يزيد من فجعكم على أبنائكم، ومن حسرتكم على فراقهم، أحسنوا الظن بربكم، واستحضروا صفة رحمته في قلوبكم، واعلموا علم اليقين أنه أرحم بوليدكم منكم أنفسكم، وسلموا له أمركم، والله الموفق والمستعان.

***

٢- ومما يستعان به على الصبر والتسليم بأمر الله تعالى: تذكر ما أعده الله تعالى لهؤلاء الصغار من النعيم في البرزخ، ثم في الآخرة.

اعلم أخي المسلم، وأختي المسلمة، ويا من فقد فلذة من كبده، أن صغيرك الآن في حال يغبطه عليها الكبار من النعيم، وهذا الذي أقوله ليس رجمًا بالغيب مني، وإنما أنا كخزيمة بن ثابت رضي الله عنه حين شهد للنبي صلى الله عليه وسلم بالصدق في واقعة لم يشهدها، فخلد الله تعالى شهادته وزكاها[1].

(١) انظر القصة في سنن أبي داود (٣٦٠٧)- (٤٦٤٧)، ومسند أحمد (٢١٨٨٣)، والسنن الكبرى للنساء (٦١٨٩)، والمستدرك للحاكم (٢١٨٧)، والمعجم الكبير للطبراني (٩٤٦).

لقد تضافرت النصوص في شأن من مات من أولاد المسلمين، سواء في حالهم أنفسهم، أو في كونهم يشفعون لآبائهم يوم القيامة ولا يرضون حتى يدخل آباؤهم الجنة معهم، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه: عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قصّ عليهم حديث المنام الطويل، ومما قال فيه: «فانطلقنا، فأتينا على روضة مُعْتَمَّة، فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولًا في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟»، وفي ختام الحديث فُسّر هذا بقولهم: «وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة، قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأولاد المشركين»[1].

فالنبي الأمين صلوات الله وسلامه عليه يخبرنا أنه رأى هؤلاء الأطفال في روضة معتمة، أي: روضة غنّاء كثيرة النبت والشجر، وجاء في بعض طرقه "روضة معشبة"، وفي بعضها "دوحة عظيمة"، وكلهم بذات المعنى، ويكونون رفقة نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام، وهذا في البرزخ، بعد أن تصعد روحهم إلى السماء، فترسل إلى الجنة لتكون في كفالة الخليل عليه السلام حتى تقوم الساعة.

وثمة رواية أخرى لهذه الرؤيا: عن أبي أمامة رضي الله عنه، وفيها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثم انطلق بي، فإذا أنا بغلمان يلعبون بين نهرين، فقلت: من

(١) رواه البخاري (٧٠٧٤)، وأحمد (٢٠٠٩٤)، والنسائي في الكبرى (٧٦١١)، وابن حبان (٦٥٥)، والطبراني (٦٩٨٤).

هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء ذراري المؤمنين».. الحديث[1]. ففي هذه الرواية رآهم يلعبون بين نهرين من أنهار الجنة، ولا منافاة مع الرواية السابقة، فإنه رآهم في دوحة أو روضة عظيمة كثيرة الشجر، وهذه الروضة بين نهرين من أنهار الجنة.

وثمة خبر ثالث يرويه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أولاد المؤمنين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة»، وعند أحمد بلفظ: «ذراري المسلمين في الجنة، يكفلهم إبراهيم»[2]، ولم يذكر الجبل، وقوله: "حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة"، دل على أن هذا في البرزخ، بعد وقوع الموت وقبل حلول اليوم الآخر.

إذن فأرواح هؤلاء الأطفال تذهب إلى الجنة، حيث تأوي إلى روضة خضرة معشبة في سفح جبل بين نهرين من أنهار الجنة، وفي كفالة سيدنا إبراهيم وزوجه سارة عليهما السلام، والعلة من اختصاص إبراهيم عليه السلام بهذه الكفالة: قيل لأنه أبو المسلمين، كما قال جل شأنه: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} [الحج: ٧٨]، وقال: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران: ٦٨]، وقيل: لأن الله تعالى رزقه البنين على كبره، فكانت رحمته بهم أشد، والله تعالى أعلم.

فإذا تجاوزنا مرحلة البرزخ إلى الدار الآخرة: يطالعنا ما رواه مسلم في صحيحه، عن أبي حسان خالد القيسي، قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، فما

---

(١) رواه ابن حبان (٧٤٩١)، وابن خزيمة (١٩٨٦)، والطبراني (٧٦٦٦)، والحاكم (٢٨٣٧).
(٢) رواه الحاكم (١٤١٨)، وأحمد (٨٣٢٤)، وابن أبي شيبة (١٢٠٥٢)، والبيهقي في البعث والنشور (٢١٠) والقضاء والقدر (٦٣٤).

أنت محدثي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: قال: نعم، «صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه – أو قال أبويه –، فيأخذ بثوبه – أو قال بيده –، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا يتناهى – أو قال فلا ينتهي – حتى يدخله الله وأباه الجنة»[1]. والدعموص: دويبة تكون في الماء لا تفارقه، أي: إن هذا الصغير في الجنة لا يفارقها، وشبه الطفل بها في الجنة؛ لصغره وسرعة حركته، وقيل: الدعموص شيء يكون أسفل الحَبّ في النبات، وفي الجملة: الدعاميص يراد بها: أن هؤلاء الأطفال هم صغار أهل الجنة، فهذا الحديث يقطع بأن هؤلاء الأولاد يكونون في الجنة، ليس فهذا فحسب، بل إنهم يكونون سببًا في إدخال آبائهم معهم.

ومن ثمَ لما سئل الإمام أحمد عن أطفال المسلمين، قال: "ليس فيهم اختلاف أنهم في الجنة، وقال أيضًا: "هو يرجى لأبويه، كيف يُشكُّ فيه؟"[2]، ونحو هذا قال أبو عبد الله القرطبي: "وفي هذا كله دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة، لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم استحال أن يُرحموا من أجل من ليس بمرحوم"، ثم نقل عن ابن عبد البر أنه قال: "وهذا إجماع من العلماء في أن أطفال المسلمين في الجنة، ولم يخالف في ذلك إلا فرقة شذت من المجرة، فجعلتهم في المشيئة، وهو قول مهجور مردود بإجماع الحجة الذين لا يجوز مخالفتهم، ولا يجوز على مثلهم الغلط"[3].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٥)، وأحمد (١٠٣٣١)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤٥)، والبيهقي في الكبرى (٧١٤٢)، والشعب (٩٢٩٦).

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل: (١/ ١٧٠).

(٣) التذكرة بأحوال الموتى: ص (١٠٤٩).

وقال النووي رحمه الله: "أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة، لأنه ليس مكلفًا"[1]، وكذا قال ابن تيمية: "وأطفال المسلمين في الجنة إجماعًا"[2].

قلت وهذا كله يتأيد بحديث معاوية بن قرة عن أبيه: قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره، فيقعده بين يديه، فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «مالي لا أرى فلانًا؟» قالوا: يا رسول الله، بُنيّه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن بُنيّه، فأخبره أنه هلك، فعزاه عليه، ثم قال: «يا فلان، أيما كان أحب إليك أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غدًا إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك»، قال: يا نبي الله، بل يسبقني إلى باب الجنة فيفتحها لي لهو أحب إلي، قال: «فذاك لك»[3]. وفي بعض طرقه: أن رجلًا قال: يا رسول الله، أله خاصة أم لكلنا؟ قال: «بل لكلكم».

وهذا السؤال الذي وجّهه النبي صلى الله عليه وسلم لذاك الأب، نطرحه على كل أب أو أم فقد فلذة من فلذات كبده: أكنت تحب أن يبقى ابنك معك في هذه الدنيا، يكدّ فيها ويشقى، ويتعب ويمرض، ويغتم ويخاف ويجزع، أم يكون منتظرًا إياك في الجنة ليفتح لك أبوابها؟

---

(١) شرح صحيح مسلم: (١٦ / ٢٠٧). (٢) الفتاوى الكبرى: (٥/ ٥٣٦).

(٣) رواه النسائي (٢٠٨٨)، وأحمد (١٥٥٩٥)، وابن أبي شيبة (١١٨٨٦)، والبزار (٣٣٠٢)، وابن حبان (٢٩٤٧)، والطبراني (١٩/ ٣١)، والحاكم (١٤١٧).

فيا كل أب مكلوم لفراق ولده، ومغموم لفقده فلذة كبده، فليطمئن بالك، وليسكن قلبك، فهو الآن في حال أفضل وأكرم مما لو كان بقي معك، وفوق ذلك هو ينتظرك على أبواب الجنة ليدخلك معه، واعلم: لو أنه خُيّر بين البقاء فيما هو فيه الآن، والعودة إلى أحضانكم وكنفكم، لاختار البقاء فيما هو فيه من النعيم والترف. وهذا بفضل الله تعالى وكرمه ومنه، ولله الحمد رب العالمين.

***

٣- ومما يستعان به على التسليم لله فيما قضى وقدّر: اليقين بأن الله عز وجل ما قضى قضاء إلا كان خيرًا للعبد، وإن بدا أنه شر من بعض الوجوه.

إن الإيمان بالقدر خيره وشره لا شك أنه ركن من أركان الإيمان، ومن ثمراته: الرضا والتسليم بأمر الله جل وعلا، وطمأنينة القلب، والصبر على مرّ القضاء وشدّة البلاء، وإن صاحبه ليُرزق ثباتًا عند المحن كثبات الطير في شدّة العواصف، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وترك اليأس والقنوط من رحمة الله، ونبذ الفجع والجزع عند المصائب، والعجب والاستعلاء عند حصول النعم، قال تعالى: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد: ٢٣].

وحين يقال: "القدر خيره وشره" لا يقصد به الشر المحض، فإن هذا محال في حق الله جل علا، فليس في قضاء الله تعالى شر محض، وهذا هو المنفي في استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم: "لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك"[(١)]،

(١) رواه مسلم (٧٧١)، والنسائي (٨٩٧)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، وأحمد (٨٠٣)، وغيرهم، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فهذا هو الشر المحض الذي لا خير فيه ألبتة، ولا نفع من ورائه بالكلية. لكن الشر المقصود في القضاء: هو ما يشق على النفس من المصائب والبلايا التي تحل بالعبد المؤمن، وهو ليس شرًا محضًا، وإنما هو شر من بعض الوجوه، لكنه يحمل الخير للعبد من وجوه أخر، أو يفضي إلى الخير فيما بعد، بأن يكشف مصيبة أكبر، أو يعوض الله تعالى صاحبه بعطاء أجزل، وما من بلاء نزل بالإنسان إلا كان فيه كفارة لبعض خطاياه، أو رفع لدرجاته، أو تعظيمًا لثوابه، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له منه»[(١)].

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[(٢)]. وروى أيضًا عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»[(٣)]. وفي الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها»[(٤)].

---

(١) رواه أبو داود (٣٠٩٠)، وأحمد (٢٢٣٣٨)، وأبو يعلى (٩٢٣)، والطبراني (٨٠١)، والبيهقي في الشعب (٩٣٨٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجة (٤٠٣١)، والبيهقي في الشعب (٩٣٢٥).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٩٩)، ومالك (٤٠)، وأحمد (٧٨٥٩)، وابن حبان (٢٩١٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٤)، والحاكم (١٢٨١).

(٤) رواه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

فهذه البلايا والمصائب التي تصيب المؤمن إن رآها شرًا من بعض الوجوه، فهي خير له من وجوه أخر، ولا ريب أن موت الولدان من أعظم المصائب والفواجع التي تصيب الإنسان، لكنها في ذات الوقت تحمل له من الخير ما يفوق فجع المصيبة، فهي إما أن تقيه بلوى أكبر، وإما أن تفضي إلى ثواب جزيل وأجر عظيم، أو تكفر من خطاياه.

فلولا أن يوسف عليه السلام غُدِر به من أقرب الناس إليه، وألقِي في الجب، وبيع بثمن بخس دراهم معدودة، لما انتقل إلى مصر ليكون وزيرًا وعزيزًا بها، ولولا أنه ألقي في السجن ظلمًا لما اطلع على رؤيا الملك وفسرها، لتكون سببًا لبلوغه تلك المنزلة الرفيعة، أي أن البلاء الذي نزل به كان سبب فوزه وسعادته.

ولنطالع معًا ما جاء في شأن الخضر عليه السلام: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} [الكهف: ٧٤]، فهذا العبد المفوض من قبل الله عز وجل يقتل غلامًا لقيه في الطريق دون سبب معلوم للغير، ضع نفسك – أخي المسلم، أختي المسلمة – مكان أبوي هذا الغلام، وكانا في بيتهما آمنين مطمئنين، وابنهما في الخارج يلهو، وإذا بالخبر الصاعق يصل إليهما: أن رجلًا غريبًا أمسك بهذا الابن وذبحه ومضى، وحاول أن تتصور مقدار تلك الفاجعة! وأي بلوى يمكن أن تفوق هذه؟

لكن انظر إلى ما أفضت إليه تلك البلوى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [الكهف: ٨٠، ٨١]، لقد نجاهما المولى عز وجل من الوقوع في الكفر بسبب هذا الغلام الذي طبع كافرًا، وأبدلهما أولادًا خيرًا منه، وأكثر طاعة وبرًا، قال بعض الصالحين: "فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه

هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره، خير له من قضائه فيما يحب"[1].

فيا كل أب، ويا كل أم، فقدوا فلذة من فلذات أكبادهم، لقد ابتليتم بمصيبة عظيمة، لكنها تحمل الخير لكم في الدارين، فلو ركنتم إلى المصيبة وحدها لأنهتكم الحسرة، وأعياكم الغم، وأما إذا صبرتم واحتسبتم وترقبتم عوض الله لكم، لأدهشكم بعطائه وجوده، فعليكم بالصبر والاحتساب والتسليم لأمر الله تعالى، لما يحمله لكم من الخير والعطايا.

***

٤- ومما يعين على التسليم بأمر الله تعالى وقضائه: تذكر ما أعده الله لهؤلاء الآباء المكلومين من النعيم والسعادة في الآخرة.

فإن الدنيا دار عمل وفتن وابتلاء، لا دار نعيم ورخاء، ولما كانت الجنة طيبة، ولا يدخلها إلا من كان طيبًا، لذا جرت سنة الله في عباده أن يبتليهم بالمصائب والفتن، ليعلم المؤمن من الكافر، ويميز الصادق من الكاذب، كما قال سبحانه: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ٢، ٣]، وقال جل شأنه: {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [الأنفال: ٣٧].

ومع ذلك، كان من فضل الله وجوده على عباده المؤمنين: أن يثيبهم على ما يصيبهم من المحن والبلاء، فحتى الشوكة التي يشاكها له بها أجر أو تكفر من خطاياه، ويزداد الأجر ويعظم الثواب بالصبر والثبات عليها، ولا ريب أن فقد

(١) انظر: تفسير البغوي: (٥ / ١٩٥)، والقرطبي: (١١/ ٨٣).

الولدان وفلذات الأكباد هو أعظم مصائب الدنيا، وأثقلها على قلوب البشر مؤمنهم وكافرهم، فلا ريب أن أعد الله للمؤمنين منهم أعظم الجزاء، وأحسن الثواب.

وهذا الجزاء إنما يدور على مدارين:-

أولهما: ثقل المصيبة، مع الصبر والاحتساب، ففي الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه، إلا الجنة»[1]. والصفي: هو الحبيب المصافي له، كالولد والأخ والصديق والوالدين، وقوله: (احتسبه) أي: صبر على فقده، وطلب الأجر من الله تعالى وحده.

وروى الترمذي عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة، وسموه بيت الحمد»[2].

ففي هذين الخبرين اقترن الجزاء بالصبر والاحتساب، وفيهما أيضًا ما يفيد أن الثواب مترتب على فقد الولد الواحد فأكثر.

وروى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من الناس من مسلم، يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث، إلا أدخله

---

(١) رواه البخاري (٦٤٢٤)، والترمذي (٢٤٠١)، وأحمد (٩٣٩٣)، البيهقي في الشعب (٩٣٩٥).

(٢) رواه الترمذي (١٠٢١)، وأحمد (١٩٧٢٥)، وابن حبان (٢٩٤٨)، والبيهقي في الشعب (٢٩٤٩).

الله الجنة بفضل رحمته إياهم»[1]، وفي بعض طرقه: "إلا أدخل الله أبويه الجنة".

وروى أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النساء قلن للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل لنا يومًا، فوعظهن، وقال: «أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد، كانوا حجابا من النار»، قالت امرأة: واثنان؟ قال: «واثنان»[2]. وفي بعض طرقه: «لم يبلغوا الحنث».

وروى كذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد، فيلج النار، إلا تحلة القسم»[3]، وقوله: "تحلة القسم" إشارة إلى قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [مريم: ٧١]، وثمة أخبار عديدة في هذا الصدد.

وقد ساق الإمام البخاري هذه الأخبار الثلاثة تباعًا لتكاملها معًا، ففي الأول: دخول الجنة، وفي الثاني: الحجب عن النار، وفي الثالث: تقييد الولوج بتحلة القسم، وفي كل منها ثبوت الفضل لمن وقع له ذلك، وقوله في ختام حديث أنس رضي الله: (بفضل رحمته إياهم) قال ابن رجب رحمه الله: "يعني: أن الله يرحم أطفال المسلمين رحمة تامة، حتى تفضل عنهم، فيدخل آباؤهم في فضل تلك الرحمة"[4].

وقد ذهب طائفة من أهل العلم: إلى أن هذا الجزاء مشروط بالصبر والاحتساب في أمر الولد الواحد فحسب، وليس مشروطًا فيمن فقد اثنين فأكثر، حيث خلت

---

(١) رواه البخاري (١٢٤٨)، والنسائي (١٨٧٣)، وابن ماجة (١٦٠٥)، وأحمد (١٢٥٣٥)، وأبو يعلى (٣٩٢٧)، والبيهقي في الكبرى (٧١٣٩).

(٢) رواه البخاري (١٠١) ومواضع، ومسلم (٢٦٣٣).

(٣) رواه البخاري (١٢٥١) ومواضع، ومسلم (٢٦٣٢).

(٤) مجموع رسائل ابن رجب: (٢/ ٣٩١).

الروايات الثلاث من الشرط، لأن البلوى أثقل من أن يتحملها كثير من الناس، لكن الإمام البخاري ساق هذه الأخبار الثلاثة بعد أن ترجم لها بقوله: (باب فضل من مات له ولد فاحتسب، وقال الله عز وجل: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٥]).

ونبه الحافظ ابن حجر رحمه الله إلى وقوع التقييد في بعض أطراف هذه الأخبار، وكذا في أخبار أخرى غيرها ذكرها، ثم قال: "وقد عُرف من القواعد الشرعية: أن الثواب لا يترتب إلا على النية، فلا بد من قيد الاحتساب، والأحاديث المطلقة محمولة على المقيدة"[(١)]، وهذا الذي قاله الحافظ حسن قوي، إذ كيف يثاب الإنسان على التسخط والاعتراض على قضاء الله تعالى؟

وأما تقييد الأخبار الثلاثة – وغيرها مما لم نذكره – ذلك الجزاء بمن فقد ولدين أو ثلاثة فأكثر، فإنه لا ينفي حصول من فقد ولدًا واحدًا على ذلك الجزاء، لما تقدم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه، إلا الجنة"، وحديث أبي موسى رضي الله عنه: " قبضتم ولد عبدي ....." الحديث، ولذلك ترجم البخاري لتلك الأخبار المتقدمة بقوله: (فضل من مات له ولد فاحتسب)، ليتناول الواحد فصاعدًا، وإن كانت أحاديث الباب مقيدة بالعدد: ثلاثة أو اثنين.

ويؤيد ذلك أيضًا ما رواه النسائي وابن حبان عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة»، فقامت امرأة، فقالت: أو اثنان؟ قال: «أو اثنان»، قالت المرأة: يا ليتني قلت واحدًا[(٢)]. في

---

(١) انظر للأهمية: فتح الباري (٣ / ١١٩).

(٢) رواه النسائي (١٨٧٢)، وابن حبان (٢٩٤٣).

إشارة إلى أنها كانت ترجو منه – صلى الله عليه وسلم – إقرار ذلك. وأصرح من ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن جابر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من مات له ثلاثة من الولد، فاحتسبهم، دخل الجنة» ، قال: قلنا: يا رسول الله: واثنان؟ قال: «واثنان» ، قال محمود بن لبيد: فقلت لجابر: أراكم لو قلتم واحدا، لقال: واحد، قال: «وأنا والله أظن ذاك»[1]، وأخرجه البخاري أيضًا في الأدب المفرد، وهذا يفسر صيغة ترجمة الباب الذي أورده في الصحيح، التي عبر فيها بالولد الواحد عن أحاديث الباب، والله أعلم.

وأما الوجه الثاني الذي يدور عليه ذلك الجزاء: فهو شفاعة هؤلاء الولدان لآبائهم في الآخرة، على ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه – أو قال: أبويه –، فيأخذ بثوبه – أو قال بيده –، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا يتناهى – أو قال فلا ينتهي – حتى يدخله الله وأباه الجنة»[2].

وعنه رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله بفضل رحمته إياهم الجنة»، قال: «يقال لهم: ادخلوا الجنة، فيقولون: حتى يدخل آباؤنا، فيقال: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم»[3].

---

(١) رواه أحمد (١٤٢٨٥)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤٦)، وابن حبان (٢٩٤٦)، والبيهقي في الشعب (٩٢٨٩).

(٢) رواه مسلم، وقد تقدم تخريجه.

(٣) رواه النسائي (١٨٧٦)، وأحمد (١٠٦٦٢)، وأبو يعلى (٦٠٧٩)، والبيهقي في الشعب (٩٢٩١)، والكبرى (٧١٤٤).

وروى الإمام أحمد عن شرحبيل بن شفعة، عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه يقال للولدان يوم القيامة: ادخلوا الجنة. قال: فيقولون: يا رب حتى يدخل آباؤنا وأمهاتنا، قال: فيأتون، قال: فيقول الله عز وجل: ما لي أراهم محبنطئين، ادخلوا الجنة، قال: فيقولون: يا رب آباؤنا، قال: فيقول: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم»[1].

وقد تقدم حديث معاوية بن قرة عن أبيه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي هلك ابنه: «أما يسرك أنه لا تأتي بابًا من أبواب الجنة تستفتحه، إلا جاء يسعى حتى يستفتحه لك؟»[2].

فجميع هذه الأخبار تقطع بثبوت شفاعة هؤلاء الأولاد لآبائهم، ولا يتنافى هذا مع قول الله تعالى: {وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا} [لقمان: ٣٣]، قال القرطبي رحمه الله: "المعنيّ بهذه الآية: أنه لا يحمل والد ذنب ولده، ولا مولود ذنب والده، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر، والمعنيّ بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت، والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار، ويكون الولد سابقًا له إلى الجنة"[3]، قلت: وشفاعة الملائكة والنبيين والشهداء وصالحي المؤمنين ثابتة بالأخبار المتضافرة، وكذا شفاعة أولاد المسلمين لآبائهم، نسأل الله السداد.

ومن جميل ما يستأنس به في ذاك الصدد: ما أورده ابن أبي يعلى الفراء في (طبقات الحنابلة): عن وكيع أنه قال: "كان لإبراهيم الحربي ابن، وكان له إحدى

---

(١) رواه أحمد (١٦٩٧١)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٢٢٩)، .

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (١٤ / ٨١).

عشرة سنة، قد حفظ القرآن، ولقنه من الفقه شيئًا كثيرًا، قال: فمات، فجئت أعزيه قال: فقال لي: كنت أشتهي موت بُنيّ هذا، قَال: قلت: يا أبا إِسْحَاق! أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا فِي صبي قد أنجب، ولقنته الحديث والفقه! قَال: نعم، رأيت فِي النوم كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس يسقونهم، وكان اليوم يوم حر شديد حره، فقلت: لأحدهم اسقني من هذا الماء، قَال: فنظر إليَّ وقال: لستَ أبي، فقلت: إيش أنتم؟ فقال: نحن الصبيان الذين متنا فِي دار الدنيا، فخلفنا آباءنا، نستقبلهم فنسقيهم الماء، قَال: فلهذا تمنيت موته"[1].

***

فمن أجل ذلك كله: نزف البشرى لكل مؤمن ومؤمنة مات لهما ولد فأكثر: اصبروا واحتسبوا، فوالله ما قضى الله هذا القضاء عليكم إلا لإرادة الخير لكم ولأولادكم، واعلموا أن أفراطكم قد خلفوا الدنيا وشقاءها وكدها ونكدها وضنكها، إلى دار النعيم المقيم، والسعادة السرمدية، في كفالة خليل الله إبراهيم وزوجه سارة عليهما سلام الله، وهم الآن بانتظاركم في الدار الآخرة ليأخذوا بأيديكم إلى الجنة، فهل يجزع المؤمن لمثل هذا المنقلب؟ وهل لمثل هذا العطاء يغتم المسلم؟ وهل حرقة الفراق تغلب هذا الثواب الجميل الجزيل؟

ويا كل أب وأم فقدا فلذة من فلذات كبدهما فأكثر: انفضوا عنكم هواجس الشيطان والنفس الضعيفة، وكل ما يفت من عزمكم، ويوهن صبركم وجلدكم، فأولادكم الآن في حال هي خير مما كانوا عليها معكم، وهم الآن في كنف الرحمن،

(١) طبقات الحنابلة: (١ / ٨٩، ٩٠)، وانظر أيضًا: المقصد الأرشد، في ذكر أصحاب الإمام أحمد: (١/ ٢١٢، ٢١٣).

وهو خير لهم ولكم من كنفكم، وهم وديعة الله أودعكم إياها في دار الشقاء والكبد، ثم استردها لينقلها إلى دار النعيم والسعادة والرغد، فافرحوا لهم ولأنفسكم، واحتسبوا لقاءهم على حوض نبيكم صلى الله عليه وسلم، وعلى أبواب جنة ربكم ودار كرامته، وطنوا بربكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما تطلبون.

وختامًا نقول: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

اللهم قدَّرْتَ، وما شئتَ فعلتَ، ولك الحمد على ما قضيت، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت، ولك الحمد في الأولى والآخرة، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، يا رب العالمين.

اللهم هؤلاء أبناؤنا، قد أصبحوا في ذمتك وحبل جوارك، وإنهم لم يلقوك بذنب، ولم يجرِ عليهم القلم، ومنهم من قدّرْتَ له المرض في حياته لحكمة لديك، ولا معقِّب لحكمك، ولا رادّ لقضائك، وأنت العزيز الحكيم.

اللهم نسألك بأنك أنت الله الرؤوف الرحيم، وبأنك أنت أرحم الراحمين، ونسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو علمتَه أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تتقبل أولادنا عندك أحسن قبول، وأن تنزلهم خير منزل، وأنت خير منزول به يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم استودعناك أبناءنا، وثمرات أفئدتنا، فتغمدهم وإيانا بوافر رحمتك، اللهم أكرمْ نُزُلَهم، وأحسنْ أُنسَهم، وأذهبْ عنهم كل وحشة يا أكرم الأكرمين. اللهم أذهب عنهم الخوف والحزن، واملأ قبورهم نورًا، وأفسح لهم فيها، اللهم أخرجهم من ظلمة اللحد وضيقه إلى سعة جنتك ورضوانك.

اللهم أبدلْهم دارًا خيرًا من ديارهم، وأهلًا خيرًا من أهليهم، ومتعهم بكفالة نبيك وخليلك إبراهيم، ورفقة ابن نبيك وخليلك محمد، عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجُرنا – نحن الآباء والأمهات – في مصيبتنا، واخلُفْ لنا خيرًا منها، اللهم لا تحرمنا أجر أفراطنا، ولا تفتنّا بعدهم، اللهم عظِّمْ بهم أجورنا، وثقِّل بهم موازيننا، اللهم ثبِّتْنا وصبّرْنا ورضّنا، واربط على قلوبنا، وأنزل سكينتك علينا. اللهم بشّرنا فيهم بما يسرنا، في الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين.

اللهم اجعل هؤلاء الولدان لنا أذخارًا وأفراطًا وشفعاء، واجمعنا بهم في مستقر رحمتك، ودار كرامتك، يا أكرم الأكرمين، يا رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد ألا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

اللهم صل على محمد، وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

جابر القصاص

الثاني من شعبان ١٤٤٥ هـ

***

الفوائد

مصيبة الموت بعامة	٢
مصيبة موت أحد الولدان خاصة	٣
معنى: (إنا لله وإنا إليه راجعون) وفضلها	٤
فضل التسليم لأمر الله تعالى وقضائه	٥
صفة الرحمة لله عز وجل، ولزوم الإيمان بها	٨
صفة خروج الروح	١٣
هل يمتحن الأولاد في قبورهم؟	١٥
ما أعده الله لهؤلاء الولدان في البرزخ	١٨
ما أعده الله لهؤلاء الولدان في الآخرة	٢٠
ما قضى الله لعباده المؤمنين إلا ما كان خيرًا لهم	٢٣
ما أعده الله للآباء في الآخرة	٢٥
فضل الصبر والاحتساب لمن مات له ولد	٢٦
ثبوت شفاعة الأولاد لآبائهم في الآخرة	٢٩
تلخيص البشارة للآباء	٣١